

الثبات

أمام الفتن والتحديات

الشيخ السيد طه أحمد

الحمد لله رب العالمين .. حبيب إلينا الإيمان وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان فقال تعالى {وَلِكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمُْ الْإِيمَانَ وَرَبِّئَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعَصِيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7) فَضلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (8)} {الحجرات}.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير... أرسل نبيه (ﷺ) ينادي بالإيمان فقال تعالى {رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (193)} {آل عمران}

وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، أرسله الله رحمة للعالمين، فشرح به الصدور، وأنار به العقول، وفتح به أعينا عمياء، وأذانا صمًا، وقلوبًا غُفلاً. علمنا الإيمان قبل أن تنزل السورة من القرآن فعن جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ (ﷺ) وَنَحْنُ فِتْيَانٌ حَرَّاءُ" فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازَ دَدْنَا بِهِ إِيْمَانًا" رواه ابن ماجه.

فاللهم صل علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلي يوم الدين ..
أما بعد .. فيا أيها المؤمنون ...

إن الحياة بدون إيمان لا حياة فيها ، وإن الفرد بلا إيمان ريشة في مهبّ الريح، لا تستقر على حال، ولا تسكن إلى قرار، الفرد بلا إيمان إنسان لا قيمة له ولا جذور، إنسان قلق، متبرّم، حائر، لا يعرف حقيقة نفسه، ولا سر وجوده، لا يدري من ألبسه ثوب الحياة؟ ولماذا ألبسه إياه؟ ولماذا ينزعه عنه بعد حين؟.

والمجتمع بلا إيمان مجتمع غابة، وإن لمعت فيه بوارق الحضارة؛ لأن الحياة فيه للأقوى لا للأفضل والأفقه.

المجتمع بلا إيمان مجتمع تعاسة وشقاء، وإن زخر بأدوات الرفاهية من الرخاء، المجتمع بلا إيمان مجتمع تافه مهين رخيص، غايات أهله لا تتجاوز شهوات بطونهم وفروجهم {يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12)} {محمد} ومن هنا جاءت الحاجة الماسّة الملحة للحديث عن الإيمان وأثره في الثبات أمام التحديات والأزمات"

فالإيمان نعمة، والحمد لله على نعمة الإيمان قال تعالى {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} {الحجرات}.

الإيمان يبعث في القلب الثقة بالله، والأنس بالله، والطمأنينة بذكر الله { **أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ (28)** } [الرعد]

الإيمان يبعث في النفس الثبات أمام الفتن والشدائد والتحديات قال تعالى { **يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (27)** } [إبراهيم]

لذلك كان حديثنا عن { **الثبات أمام الفتن والتحديات** } وذلك من خلال هذه العناصر الرئيسية التالية ..

1- معنى الثبات .

2- من صور الثبات.

3- الوسائل المعينة على الثبات.

4- الخاتمة.

العنصر الأول : معنى الثبات :

هو الاستمرار في طريق الهداية ، والالتزام بمقتضيات هذا الطريق ، والمداومة على الخير ، والسعي الدائم للاستزادة ، ومهما فتر المرء ، فهناك مستوى معين لا يقبل التنازل عنه أو التقصير فيه ، وإن زلت قدمه فلا يلبث أن يتوب ، وربما كان بعد التوبة خيراً مما كان قبلها ، ذلك هو حال المتصف بخلق الثبات .

العنصر الثاني : من صور الثبات

للإيمان أثر في الحياة العامة وخاصة في مواجهة التحديات والشدائد ، حيث أنه يثبت الله أهل الإيمان بكل صور الثبات ومعانيه ، فمن صور الثبات...

1- الثبات على الحق :

من المعلوم أن طريق الحق هو طريق الأنبياء والرسل وهذا الطريق ليس ممهدا ولا مفروشا بالورود والرياحين وإنما طريق مليء بالعقبات والابتلاءات ، لأن نهايته جنة عرضها السماوات والأرض قال تعالى : { **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَرَزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (214)** } [البقرة]

ويقول ابن القيم رحمه الله حاثا على الصبر والثبات في طريق الحق "يا مخنث العزم: الطريق تعب فيه آدم، وناح فيه نوح، وألقي في النار إبراهيم، وتعرض للذبح إسماعيل ، ونشر بالمنشار زكريا، ودُبح السيد الحصور يحيى."

وقد شهد بثبات أهل الإيمان الأعداء قبل الأصدقاء ألم تر إلى أبي سفيان رضي الله عنه حين سأله هرقل ملك الروم عن أصحاب النبي (ﷺ): هل يرتد أحد منهم عن

دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه؟! فقال وكان وقتها مشركاً : لا، قال هرقل: وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب.

فهذا عبد الله بن حذافة السهمي : ذكر ابن كثير رحمة الله وغيره ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث جيشا لحرب الروم وكان من ضمن هذا الجيش عبدالله بن حذافة رضي الله عنه...

طال القتال بين المسلمين والروم وعجب قيصر ملك الروم على ثبات المسلمين وجراتهم على الموت...

فأمر ملك الروم أن يحضروا له أسير من المسلمين فجاءوا بعبد الله رضي الله عنه.. فاحضروه رضي الله عنه والأغلال بين يديه والقيود في قدميه وأوقفوه أمام الملك وتحدث قيصر معه فاعجب

بذكائه وفطنته فقال له: تنصر وأطلقك من الأسر، فقال عبد الله : لا فقال قيصر : تنصر وأعطيك نصف ملكي فقال عبدالله: لا

فقال قيصر: تنصر وأعطيك ملكي وأشركك في الحكم معي ، فقال عبد الله : والله لو أعطيتني ملكك وملك آبائك وملك العرب والعجم على ان ارجع عن ديني طرفة عين ما فعلت...

انظروا الإغراءات من ملك الروم والثبات من بطلنا عبدالله رضي الله عنه...

فغضب قيصر وقال: "اذن اقتلك" قال: "اقتلني" فامر قيصر جنوده، وعلق على الخشبة وجاء قيصر وأمر الرماة أن يرموا السهام من حولة ولا يصيبوه وهو أثناء ذلك يعرض عليه النصرانية وهو يأبي وينتظر الموت..

فلما رأى قيصر إصراره أمر أن يمضوا به إلى السجن فكفوا وثاقة ومضوا به إلى السجن وأمر أن يمنعوا عنه الأكل والشراب حتى إذا كاد أن يهلك من الجوع والعطش احضروا له خمرًا ولحم الخنزير...

فقال عبدالله: والله اني أعلم أني مضطر وأن ذلك يحل لي الآن في ديني ولكني لا أريد أن يشمت بي الكفار.

فلم يقرب الطعام فأخبروا قيصر فأمر له بطعام حسن ثم أمر أن تدخل عليه امرأة حسناء تتعرض له بالفاحشة...

فأدخلوا عليه أجمل النساء وجعلت تتعرض له وتتنزين وهو رضي الله عنه معرض عنها وهي تتمايل امامه.

فلما رأت المرأة ذلك خرجت وهي غاضبة وتقول : "لقد أدخلتموني على رجل لا أدري أهو بشر أم حجر وهو والله يدي عني أنا أنثى أم ذكر".

فلما ينس منه قيصر أمر بقدر من نحاس ثم أعلى فيها الزيت ثم أوقف عبدالله بن حذافة رضي الله عنه أمامها وأحضروا أحد أسرى المسلمين موثقاً بالقيود حتى ألقوه في هذا الزيت وغاب جسده في الزيت..

مات وطفت عظامة تنقلب على الزيت وعبدالله ينظر الى العظام...فالتفت قيصر إلى عبدالله ودعاه للنصرانية ، فأبى رضي الله عنه.

انظروا الثبات على الدين وعلى البلاء

فغضب قيصر فأمر أن يطرح على القدر فلما جروه إلى القدر وشعر بحرارة النار بكى رضي الله عنه ودمعت عيناه، ففرح قيصر.

قال له قيصر : " تنصر وأعطيك وأمنحك" فقال له : لا فقال : إذا ما الذي يبكيك ؟ فقال: أبكي والله لأنه ليس لي إلا نفس واحدة تلقى في القدر فتموت ولقد وودت والله لي بعدد شعر رأسي نفوس كلها تموت في سبيل الله مثل هذه الموتة.

الله اكبر يا عبدالله رضوان الله عليك...

فقال له قيصر: قبل رأسي وأخلي عنك فقال:" وعن جميع اسارى المسلمين عندك"

قال : "نعم" فقبل راسه ثم اطلقه مع الاسرى.

آسية امرأة فرعون :

وهذه آسية امرأة فرعون : كانت أعظم ملوك الأرض يومئذ ،في قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه المرأة ما تشتهي، فالمرأة في هذا المكان تكون أشد شعوراً وحساسية بوطأة المجتمع وتصوراته ولكنها في وسط ضغط المجتمع والقصر، والملك، والحاشية والمقام الملوكي ، رغم هذا كله إلا أنها رفعت رأسها إلى السماء وحدها في خضم هذا الكافر الطاغي ، فقد كانت الأوتاد توضع في يديها ورجليها فكانت تأتيها الملائكة لتظللها إذا افترقوا عنها "ف قالت : { رَبِّ أَيْنَ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ(11) } [التحریم] فكشف الله لها بيتها في الجنة .. وهكذا أصبحت على مكانه عالية وسيدة نساء العالمين ...

2- الثبات في جهاد الكفار:

الثبات في المعركة كما ثبت الرّبِّيون الكثير من أنبيائهم ، وكان قولهم : { رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا (147) } [آل عمران]

والفتنة الصابرة بامرة طالوت الذين قال الله فيهم : { وَلَمَّا بَرَّرُوا لِحَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا(250) } [البقرة]

قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ ءَلَأَدَّبَارَ (15)

وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَفَدَّ بَاءً بِعَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ
وَمَاؤُلُهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (16) { [الأنفال]

وفي ذلك توجيه للمؤمن أن يلتجئ إلى الله طالبًا منه التثبيت .

ولذلك كان من وصايا النبي (ﷺ) لمعاذ بن جبل : **{ وإياك والفرار من الزحف وإن هلك الناس ، وإذا أصاب الناس موتان وأنت فيهم فاثبت }** [رواه أحمد] ؛

لأن الثبات يزيد المؤمنين قوة ، ويوقع في نفوس العدو رهبة وقد كان رسول الله (ﷺ) يعمق هذا المعنى يوم الأحزاب وهو ينقل التراب وقد وارى التراب بطنه وهو يقول : **{ لولا أنت ما اهتدينا ، ولا تصدقنا ولا صلينا ، فأنزل السكينة علينا ، وثبت الأقدام إن لاقينا ، إن الألى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا }** [رواه البخاري] .

فها هو [خالد بن الوليد أبو سليمان] رضوان الله عليه يقارع الروم في أرضهم كما روى [ابن كثير] حتى كانت الدائرة على الروم، فما كان منهم إلا أن فرّوا وتحصنوا في مدينة "قنسرين"؛ مدينة محصنة من مدنها بالجدران المنيعة والأبواب الثقيلة التي لا يفتحها مقتحم ، فماذا كان من خالد ؟

حاول اقتحامها فما استطاع، حاول أن يحاصرها حصارًا عامًا عسكريًا واقتصاديًا واجتماعيًا فما أفلح، استعصت عليه، فما كان منه إلا أن دوّن رسالة، قال في هذه الرسالة قالها بثبات المؤمن الذي يثق بنصر الله جل وعلا قال: من خالد بن الوليد أبي سليمان إلي قائد الروم في بلدة "قنسرين" أما بعد فأين تذهبون منا؟ والذي نفس خالد بيده لو سعدتم إلي السحب لأصعدنا الله إليكم، أو لأمطركم علينا ". كلمات الثقة بنصر الله عز وجل .

وصلت الرسالة إلى ذلك العليج، فقرأها وارتعدت فرأى، وسقطت من بين يديه، وما كان منه إلا أن قال: افتحوا أبواب المدينة، وخرجوا مستسلمين، لا طاقة لنا بهؤلاء. ما الذي ثبت خالدًا إلا الإيمان؟ ما الذي ثبت جند الله إلا الإيمان؟ يوم أخذوه، وأخذوه بحق وبجدية.

3- الثبات في المرض:

كان حال أهل الإيمان مع المرض الصبر والرضا كما حكى الله تعالى عن سيدنا أيوب عليه السلام قال تعالى : **{ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) }** [الأنبياء]

وكذلك أصحاب النبي (ﷺ) يروي ابن حجر في الإصابة أن عمران بن حصين رضي الله عنه وأرضاه، هذا الصحابي الجليل الذي شارك مع النبي (ﷺ) في الغزوات، استسقى بطنه فبقي نائمًا على ظهره طريح الفراش ثلاثين سنة لا يقوم ولا

يقعد، حفروا له في سريره -وكان من جريد النخل- حفروا له فتحةً لقضاء حاجته، فدخل عليه مطرف بن الشخير فجعل يبكي لما يراه من حاله، فقال له عمران: لم تبكي؟! قال: لأنني أراك على هذه الحالة العظيمة، قال: لا تبك فإن أحببه إلى الله تعالى أحبه إليّ، ثم قال: أحدثك حديثاً لعل الله أن ينفع به، واكنتم عني حتى أموت، إن الملائكة تزورني فأنسُ بها وتسلّم عليّ، فأعلمُ بذلك أن هذا ليس بعقوبة بل هو نعمةً جسيمة. هكذا فهموا معنى الإيمان والرضا بالرحيم الرحمن. يقولون: رضينا بالله صدقاً وحقاً.

وهذا عروة بن الزبير، فقد توفى ابنه وفاةً غاية في الصعوبة إذ دهسته الخيل بأقدامها، وقُطعت قدم عروة في نفس يوم الوفاة، فاحترت الناس على أي شيء يعزونه.. على فقد ابنه أم على قطع رجله؟

فدخلوا عليه، فقال: اللهم لك الحمد، أعطيتني أربعة أعضاء، أخذت واحداً وتركت ثلاثة، فلك الحمد؛ وكان لي سبعة أبناء، أخذت واحداً وأبقيت ستة، فلك الحمد؛ لك الحمد على ما أعطيت، ولك الحمد على ما أخذت، أشهدكم أنّي راضٍ عن ربي . ويروى عن أبي بن كعب رضي الله عنه سيد القراء يقول للنبي (ﷺ) إنا لنؤجر في الأمراض والحمى والمصائب؟

فيقول (ﷺ) كما في الحديث المتفق عليه "والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن همٌّ ولا غمٌّ ولا نَصَبٌ ولا وَصَبٌ ولا بلاءٌ حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها خطاياها" فقال: اللهم إني أسألك حمى لا تبعني عن صلاة ولا حج ولا جهاد، فمكثت به ثلاثين سنة حتى ابيض شعر رأسه ولحيته، وكان لا يجلس بجانبه أحد من شدة فيح الحمى، ليلقى الله ثابتاً بالإيمان، وهكذا يفعل الإيمان.

4- الثبات أمام الشهوات والشبهات:

ومن آثار الإيمان على حياة الناس أنه عصمة وحجاب عن المعاصي والشهوات والشبهات.

يقول رسول الله (ﷺ) كما في الحديث الصحيح: " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن" إن المؤمن يا أيها الأحبة يقدم مراد الله على شهواته وعلى لذائذه، فييسر الله أمره، ويعصمه سبحانه وبحمده. ففي الأثر أن الله -سبحانه عز وجل قال: "وعزتي وجلالي، ما من عبد أثر هواي على هواه أي قدم مراد الله على شهوات نفسه وهواها إلا أقللت همومه، وجمعت له ضيعته، ونزعت الفقر من قلبه، وجعلت الغنى بين عينيه، واستجرت له من وراء كل فاجر" الإيمان عصمة من الوقوع في

المعاصي

ها هو الشاب القوي الحيي العالم، الذي يبلغ ثلاثين سنة؛ إنه [الربيع بن خُثَيْم]، يتمالَى عليه فُسَاقٌ لإفساده، فيأتون بغانية جميلة، ويدفعون لها مبلغاً من المال قدره ألف دينار، فنقول: علام؟ قالوا: على قبلة واحدة من الربيع بن خثيم، قالت: ولكم فوق ذلك أن يزني؛ لأنه نقص عندها منسوب الإيمان، فما كان منها إلا أن تعرضت له في ساعة خلوة، وأبرزت مفاتها له، فما كان منه إلا أن تقدم إليها يركض ويقول: يا أُمَّة الله؛ كيف بك لو نزل ملك الموت فقطع منك حبل الوتين؟ أم كيف بك يوم يسألك منكر ونكير؟ أم كيف بك يوم تقفين بين يدي الرب العظيم؟ أم كيف بك إن شقيتي يوم تُرْمَيْن في الجحيم؟ فصرخت وولت هاربة تائبة إلى الله، عابدة زاهدة حتى لُقِبت بعد ذلك بعابدة الكوفة، وكان يقول هؤلاء الفُسَاق: لقد أفسدها علينا الربيع. ما الذي ثَبَّت الربيع أمام هذه الفتنة؟ هل قلة شهوة؟ إنها الشهوة العظيمة في سن الثلاثين، ومع ذلك ما الذي ثبته هنا، وما الذي عصمه بإذن الله؟ إنه الإيمان بالله الذي لا إله إلا هو.

5- الثبات في أيام الفتن :

ومن صور الثبات في الفتن : الصبر في أيام الصبر التي وصفها رسول الله (ﷺ):
{ الصبر فيهنَّ مثل القبض على الجمر } [رواه أبي داود والترمذي] ، وفي رواية :
{ يأتي على الناس زمان الصابر فيه على دينه ، كالقابض على الجمر } [رواه الترمذي] ، ومن ذا الذي يثبت قابضاً على الجمر؟!
 لذلك بشر رسول الله (ﷺ) بأن الثابت من هؤلاء له أجر خمسين من الصحابة : **{ إن من ورائكم أيام الصبر ، للمتمسك فيهنَّ يومئذٍ بما أنتم عليه أجر خمسين منكم }**
 [سلسلة الأحاديث الصحيحة].

وفي أشد ما يلقاه المسلمون من الفتن حين يخرج الدجال ويعيث يميناً وشمالاً ، فإن الوصية الأساسية لرسول الله (ﷺ) التي يوصي بها أمته حينئذٍ **{ يا عباد الله . اثبتوا }** [رواه ابن ماجة].

وهذا حال الأنبياء وأتباعهم من المتقدمين كأهل الأخدود ونحوهم، وكسلف هذه الأمة والصحابة والتابعين وغيرهم من الأئمة، حتى كان مالك رحمه الله يقول: لا تغبطوا أحداً لم يصبه في هذا الأمر بلاء.

يقول: وإن الله لا بد أن يبتلي المؤمن، فإن صبر رفع درجته كما قال تعالى :

{الم(1) أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ(3)} [العنكبوت].

6- الثبات على الطاعات :

ومن أهم صور الثبات المداومة على الطاعات ، فالمطلوب في بعضها المثابرة عليها ، يروي الترمذي : { من ثابر على ثنتي عشرة ركعة من السنة بنى الله له بيتاً في الجنة } [الجامع الصحيح]
وتقول عائشة رضي الله عنها عن رسول الله (ﷺ) { وكان أحب الدين إليّ ما داوم عليه صاحبه } [رواه مسلم] .

وعند مسلم كذلك : { وكانت عائشة إذا عملت العمل لزمته } [رواه مسلم]
وحين سئل رسول الله (ﷺ): أي العمل أحب إلى الله؟ قال: { أدومه وإن قلَّ } [رواه مسلم]

وكان آل محمد (ﷺ) إذا عملوا عملاً أثبتوه .

يقول النووي : أي لازموه وداوموا عليه .

والقول الجامع لرسول الله (ﷺ) في بيان حقيقة الإسلام : إيمان وثبات : { قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك ، قال : قل أمنت بالله ثم استقم } .

7- الثبات عند الموت:-

من أعظم صور الثبات : الثبات في تلك اللحظة الأخيرة، في تلك اللحظة الحاسمة، في لحظة الموت العصبية المريرة التي لا يثبت فيها إلا المؤمنون، يوم يعتقل اللسان، ولو لم يعتقل لصاح الميت من شدة ما يلاقي من السكرات حتى تندك جدران الغرفة التي هو فيها، يوم يخدر الجسم، ولو لم يخدر لما مات أحد على فراشه، ولما مات إلا في شعب الجبال ورؤوس الجبال؛ من شدة ما يلاقي من السكرات. اللحظة التي صورها من عناها بأبي هو وأمي (ﷺ) يوم يغمى عليه ويصحو، ويقول: " لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات"، لحظة عاناها، وعاناها صحابة رسول الله (ﷺ) ووصفها أحدهم وهو [عمر بن العاص] رضي الله عنه وأرضاه- فقال وهو في اللحظات الأولى من لحظات السكرات، لا زال لسانه لم يعتقل، ولا زال جسمه لم يخدر: والله لكأن على كتفي جبل رضوى، وكأن في جوفي شوكة عوسج، وكأن روحي تخرج من ثقب إبرة، وكأن السماء أطبقت على الأرض وأنا بينهما. في هذه اللحظات المريرة العصبية يأتي أثر الإيمان واليقين، فيلهمك الله النطق بالشهادتين، ومن " كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة " على ما كان.

في تلك اللحظات يأتي المؤمنون فيسعدون بتلك اللحظات؛ لأنهم يعلمون أنها آخر عناء، وآخر تعب، وآخر نصّب، وآخر وصب، ليس هذا فحسب، بل تستقبلهم

الملائكة، بل تبشرهم الملائكة، فلا خوف ولا حزن قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا

اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا تَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (31) نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (32) { [فصلت]

ها هو [عمر بن عبد العزيز] عليه رحمة الله- في سكرات الموت يقول: مرحباً بالوجوه ليست بوجوه جن ولا إنس، ثم يطلب ممن حوله أن يخرجوا، وإذا به يقول: (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فِسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) ليلقى الله عز وجل على ذلك.

وأحدهم بلغت به سكرات الموت مبلغاً فيقولون له: قل: لا إله إلا الله، وهو من الصالحين، لا يزكي على الله، فكان يقول: { يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27) } [يس] ليلقى الله على تلك الحال { يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (27) } [إبراهيم]

يُحْكِي أَنْ مَوْذُنَ اعْتَادَ رَفَعَ الْأَذَانَ مِنْ عَلَى الْمَنَابِرِ كُلِّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَاتٍ، يَخْتَمُهَا بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَاتِ الْآخِرَةِ مِنْ حَيَاتِهِ يَغْمِي عَلَيْهِ إِغْمَاءٌ مُسْتَمِرَّةٌ، فَمَا كَانَ يَفِيقُ إِلَّا فِي وَقْتِ الصَّلَاةِ، فَإِذَا جَاءَتْ وَقْتُ الصَّلَاةِ قَامَ وَأَذَنَ حَتَّى يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى إِغْمَائِهِ، وَيَقُولُهَا مَرَّةً مِنَ الْمَرَاتِ، يَفِيقُ مِنْ إِغْمَائِهِ وَيَقُولُ: يَا بَنِي، وَابْنَهُ مَعَهُ، أَحَانَ وَقْتُ الصَّلَاةِ؟

قال: نعم، فقال: الله أكبر، الله أكبر حتى ختمها بلا إله إلا الله، ليلقى الله على تلك الحال (يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) .

وفي المقابل تجد الذين لا إيمان لهم في تلك اللحظات، الذين لم تنضبط سلوكهم قد ضيق الله عليهم، وعسر أمورهم، وأوغر صدورهم، ثم لا يُلْهِمُونَ الشَّهَادَةَ لِيَخْتَمُوا بِهَا حَيَاتِهِمْ.

فيا لها من سوء خاتمة، ها هو شاب في سكرات الموت، يقولون له: قل: لا إله إلا الله ولطالما دنس فمه بشرب الدخان فيقول: أعطوني دخاناً، فيقولون: قل: لا إله إلا الله، فيقول: أعطوني دخاناً، أعطوني دخاناً، فيقولون: قل: لا إله إلا الله عل أن يختم لك بها، قال: أنا بريء منها، أعطوني دخاناً، ليلقى الله على تلك الحال. نسأل الله حسن الخاتمة.

وشاب آخر: كان صادراً وناذراً عن الله جل وعلا وحلَّت به سكرات الموت التي لا بد أن تحل بي وبك، لا أدري أقرب أم بعيد؟

نسأل الله أن يحسن لنا ولكم الختام، جاء جلوسه وقالوا: قل: لا إله إلا الله، فيتكلم بكل

كلمة ولا يقول لا إله إلا الله، ثم يقول في الأخيرة: أعطوني مصحفاً، ففرحوا واستبشروا وقالوا: لعله يقرأ آية من كتاب الله، فيختم بها، فأخذ المصحف ورفع يده، وقال: أشهدكم أنني قد كفرت برب هذا المصحف، ثم يلقي الله على ذلك. نسأل الله أن يحسن لنا ولكم الختام (وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) **العنصر الثالث: الوسائل المعينة على الثبات:**

1- طلب الثبات من الله تعالى :

فليس بالبعد غناء عن ربه طرفة عين، فإن لم يثبتته ربه ضل وهلك ، ولأن مسألة الثبات على الدين قضية تشغل فكر المسلم ، فقد كان رسول الله (ﷺ) يكثر من قول : **{ يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك }** [رواه أحمد] .
وقد كان رسول الله (ﷺ) يخشى على نفسه في مواجهة الجاهلية أن يداهن أو يلين ، ولذلك خاطبه ربنا عز وجل بفضله عليه بأن أخلص ولاءه لله : **{ وَلَوْلَا أَنْ تَبَيَّنَّاكَ لَفَدَّ كِدْتُ تَرْكُنَ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (74) إِذَا لَأَدْفَنَّاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ (75) }** [الإسراء]

كما نجد كثيراً من الأدعية تركز على معنى الثبات ، ومن ذلك دعاء عبد الله بن مسعود : **{ اللهم إني أسألك إيماناً لا يرتد ، ونعيماً لا ينفد }** [رواه أحمد] .
وقال شداد بن أوس : " كان رسول الله (ﷺ) يعلمنا كلمات ندعو بهن في صلاتنا : **{ اللهم إني أسألك الثبات في الأمر وأسألك عزيمة الرشد }** [رواه أحمد]

2- تدبر القرآن ومدارسته والعمل به:

قال الله تعالى: **{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (32) }** [الفرقان]
وقال تعالى: **{ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (102) }** [النحل].

كما أن مدارس القرآن وسماعه تزيد الإيمان، كما قال تعالى: **{ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ(124) }** [التوبة]

وقال تعالى عن المؤمنين: **{ وَإِذَا ثَلَيْتَ عَلَيْهِمْ ءَايَتَهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) }** [الأنفال] .

والقرآن شفاء لأمراض الشبهات والشهوات كما قال تعالى: **{ وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82) }** [الإسراء]
وقال:(قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) فإذا سلم القلب من أمراض الشبهات

والشهوات كان أقوى على مواجهة الفتن، وأكثر ثباتاً على الحق. كما أنه يشتمل على قصص السابقين التي تبشر المؤمنين بالنصر والتمكين وتبين عاقبة الظالمين والمجرمين: { وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (120) } [هود]
 فل هذه الأسباب وغيرها كانت مدارسة القرآن من أعظم أسباب الثبات.
3- العمل بطاعة الله والكف عن معاصيه:

فالطاعات أغذية للقلوب، كما أن المعاصي سموم تصيب القلب في مقتل، قال الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24) } [الأنفال]
 وقال تعالى: { وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيئًا (66) } [النساء] .

فمهما أطاع العبد ربه والتزم أوامره، وانتهى عما نهى عنه كان قويا في مواجهة الفتن، ومهما كان مفرطاً في اتباع الشرع، مقبلاً على المعاصي كان ضعيفاً أمام الفتن، قال بعضهم:

رأيت الذنوب تमित القلوب	وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب	وخير لنفسك عصيانها

4- كثرة ذكر الله عز وجل:

فالله جل وعلا يقول: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (42) هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا(43) } [الأحزاب]
 ألم تر أن الله عز وجل لما أرسل سيدنا موسى وهارون إلى فرعون أوصاهما بالإكثار من ذكره سبحانه، فقال: { أَذْهَبَ أَنْتَ وَأُخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنبِيءَا فِي ذِكْرِي (42) } [طه]

وأمر الله المؤمنين عند ملاقاته الكفار بأن يكثرُوا من ذكره فقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُتِلْتُمْ فَبِئْسَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (45) } [الأنفال]
 فكثرة الذكر تقوي القلب والبدن، فيستعان بالذكر في مواجهة الفتن والابتلاءات وعند ملاقاته الأعداء.

وبالذكر واللجوء إلى الله استعان يوسف عليه السلام في الثبات أمام فتنة المرأة ذات المنصب والجمال لما دعته إلى نفسها؟ ألم يدخل في حصن ” معاذ الله ” فتكسرت أمواج جنود الشهوات على أسوار حصنه؟ وكذا تكون فاعلية الأذكار في

تثبيت المؤمنين .

5- الصحبة الصالحة:

فالصحبة الصالحة تُعين العبد على سلوك الحق واتباع أوامر الله ، قال تعالى: { وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28) } [الكهف].

وقال تعالى مبيناً خطورة صاحب الفاسد، وأنه قد يكون سبب الانتكاس: قال تعالى: { وَيَوْمَ يَعْزُزُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (29) } [الفرقان].

وقال (ﷺ): { إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوِّءِ، كَمَا مِلَ الْمِسْكَ وَنَافِخُ الْكَبِيرِ؛ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْدِثَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَتَّبَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكَبِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً } [رواه مسلم].

الخاتمة..

إن الثبات نعمة من الله تعالى وفضل لمن يؤمن بالله عليه بذلك كما ثبت أصحاب النبي (ﷺ) يوم أحد كما قال الله تعالى: { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (173) فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (174) } [آل عمران]

وكما ثبت المؤمنون يوم الأحزاب قال تعالى { وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (22) مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (23) } [الأحزاب]

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرَّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ، وَعَرَائِمَ مَغْفِرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا، وَلِسَانًا صَادِقًا، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ.